﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾

[الحجر: 74]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنوّع العذاب على قومِ لوطٍ المنحرفين، لشدّة غضب الله عليهم

ثمَّ بيَّن اللّه تعالى ما تسبَّبَ عن أخذِ قومِ لوطٍ بالصّيحةِ، فجاءت هذه الآية لبيانِ شدّة غضبِ اللّه عليهم[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِجِّيلٍ﴾: أصلُ (سجل): يَدُلُّ على انْصِبابِ شَيءٍ بعد امتِلائِه، مِنْ ذلك السَّجْلِ، وهو الدَّلْوُ العَظيمَةُ. يُقالُ سَجَلْتُ الماءَ فانْسَجَلَ، وذلكَ إذا صَبَبْتَهُ، ومنه: سَجَله بالشَّيء: رَماهُ به مِنْ فوْق[2]، والسِّجّيلُ: الصُّلْبُ الشَّديدُ، وهو أيضًا: حَجَرٌ وطينٌ مُختلِطٌ[3]، والسِّجّيلُ أيضًا: وادي نارٍ في جَهَنَّمَ، يُقالُ: سِجّيلٌ بِاللّام، وسَجّينٌ بِالنّونِ[4]، وقيل: إنَّ الكلمة مُعرَّبة عن (سنك كيل) الفارسيَّة، لكنَّها واضحة العُروبة بصيغتها وبانسجامها مع معنى التَّركيب، وقد سَلَّم الأزهريُّ وغيره بتعريب الكلمة، وجَوَّز الزَّجّاج رجوع الكلمة إلى السَّجْل: الصَّبّ، كأنَّها مُرسَلَةٌ عليهم[5]، والمقصود بالسِّجّيلِ في الآية: طينٌ مُتحَجِّرٌ مِنْ وادٍ في جَهَنَّم.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

الضَّلال والهوى نهايته الشُّؤم والبلاء، في أقسى عقوبة، وأشدّ عذاب

بيَّن اللّه تعالى صفة العذاب المدمر الذي أُحيط بقوم لوط نتيجة كفرهم وسوء سلوكهم، فالآية جيء بها لبيان آثار هذه الصَّيحة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/76.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سجل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/134.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).

وأنَّها قلبت القرية، فجعلت أعلاها أسفلها، أي أنَّها أتت على بنيانها، فجعلته أرضًا، ثمَّ تبع ذلك مطر من حجارة موسومة، معدَّة ومحمَّلة بالمهلكات[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالة الفاء في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَا﴾:

الصّيحة كانت سببًا في قلب المدينة رأسًا على عقب

أفادت الفاء ترتّب جعلِ عاليها سافلَها على أخذهم بالصّيحة[2]، ففيه إشعارٌ بعظم هولِ الصّيحة، التي كانت سببًا في انقلاب المدينة بجعلِ عاليها سافلَها.

### سرُّ اختيار لفظ ﴿فَجَعَلْنَا﴾ دون (قلبنا):

عذاب المنحرفين عن الفطرة لا مثيل له في الشّدّة والهولِ

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وفيه عُبِّرَ بلفظ الجعل دون القلب؛ لِما في الجعل من معنى تحويل الشّيءِ من حالةٍ وهيئةٍ إلى حالةٍ أخرى مغايرةٍ للحالة الأولى، بحيث يكون لها صورةٌ وهيئةٌ جديدةٌ، كما أنَّ التّعبير بالجعل يدلُّ على أنَّ جعلَ عاليها سافلها هو جعلٌ عظيمٌ وعجيبٌ، أي: إنَّ العذابَ ليس له مثال سابقٌ في شدّة الهلاكِ وهولِ العذاب برفعِ المدينةِ ثمَّ انقلابِها دفعةً واحدةً وضربِها على الأرضِ[3].

### نكتةُ إسناد الفعل إلى ضمير العظمة، في السّياق:

الأمرُ الّذي يتولّاه العظيم، لا يكون إلّا عظيمًا

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، كان حقُّ التّعبير أن يقال: فجعلوا عاليَها سافلَها، أي: الملائكة المأمورون بالإهلاك، فلمّا أسند الجعل إلى ذاتِه تعالى بضمير العظمة (نا)، من حيث إنَّه المسبِّب له؛ لأنَّه تعالى هو الآمر به، أفاد الإسنادُ إلى ضمير العظمة تعظيمَ الجعل المذكور؛ لأنَّ الأمر الذي يتولّاه العظيم لا يكون إلّا عظيمًا،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/253.
(2) القونجي، مقاصد القرآن: 7/187.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/161.

فكان إسناد الفعل إلى الضَّمير في النّظم الشّريف أوفى بالمبالغة في الكلامِ وأوفق بمقتضى الحال وأنسب بالمقام[1].

### بلاغة التّعبير بجعل العالي سافلًا، لا العكس:

المقصود بالعذاب، ما على وجهِ المدينة وليس ما في سافلِها

لّما كان ﴿عَٰلِيَهَا﴾ مفعولًا أوّلًا للفعل ﴿فَجَعَلۡنَا﴾، و﴿سَافِلَهَا﴾ مفعولًا ثانيًا، وكان أصلُهما مبتدأ وخبرًا، أفاد الكلام أنَّ المقصودَ هو جعلُ أعالي المدينة، أي: وجهها وما عليها ممّا فيه مَقارُّهم ومساكنُهم سافلَها، والمعنى: قلبناها على تلك الهيئةِ، لتهويل الأمرِ وتفظيعِ الخطبِ على القوم الهالكين، وهو أشدُّ عليهم وأشقُّ من جعل سافِلها عاليَها؛ لأنَّ المقصود بالعذاب هو ما على وجهِ المدينة وليس ما في سافلِها، وإن كان جعل عالي المدينة سافلَها مستلزِمًا لجعل سافلِها عاليَها[2].

### بديع الطّباق في قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾:

عذاب الله تعالى على قومِ لوطٍ كان معجزة خارقة

جاء الكلام بطريق الطّباق لبيانِ صورة الإعجازِ، بخرق العادةِ بانقلاب المدينة عن طريق تصوّر طرفي الطّباق معكوسين، فيكون الإعجاز بخرق العادات في أمرين أحدهما: بقلعِ الأرْضِ وإصعادِها إلَى قَرِيبٍ مِنَ السَّماءِ، والثّاني: بضَربِها مِنْ ذَلِكَ البُعْدِ البَعِيدِ عَلَى الأرْضِ بِحَيْثُ لَم تَتَحَرَّكْ سائِرُ القُرَى المُحيطَةِ بها ألْبَتَّةَ، ولَم تَصِلِ الآفَةُ إلَى لوطٍ عليه السلام وأهْلِهِ مَعَ قُرْبِ مَكانِهِم مِنْ ذَلِكَ المَوْضِعِ، وهِيَ مُعْجِزَةٌ قاهِرَةٌ[3].

### تعيين مرجع الضَّمير في لفظي: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ و﴿سَافِلَهَا﴾:

بلاغة التّعبير بعود الضّمير على المدينة الفاجرة

يعود الضّمير على المدينة المذكورة في السياق في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]، ليفيد انقلابُ المدينةِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، والشّهاب، عناية القاضي: 5/209، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/160.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/383.

بلازمِه انقلابَها بأهلِها جميعًا، ولو قال (فجعلنا عاليهم سافلَهم) لم يدلَّ على هلاكِهم، ولم يُفهم منه رفع المدينة إلى أعلى، ثم قلبُها بمن فيها وسقوطُها على الأرضِ، بضربِها بها، ليدلَّ على العذاب.

**براعةُ الإيجازِ بذكر الملزوم فقط:**

براعة تصوير انقلاب المدينة بأهلها، في عبارات مختصرة مؤثّرة

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، لمّا كان جعل عالي المدينة سافلَها يلزمه جعلُ سافلها عاليَها ليفد أنَّهم قد طمروا تحت المدينة، كان الكلامُ على الإيجاز بذكر الملزوم والاكتفاء به.

**دلالة الواو في قولِه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾:**

مضاعفة العذاب على الشّاذّين، حيث يتخلّل العذاب عذاب آخر

الواو هنا حاليَّة، لتكميل الصّورة وتوضيحها، لتفيد أنَّ إمطار الحجارة كان في حالِ جعلِ عاليها سافلها، أي: كان الإمطار في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلابِ[1]، والآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعالَى جمع عليهم ثلاثةَ أَنْواعٍ مِنَ العَذابِ؛ أَحَدُها: الصَّيْحَةُ الهائِلَةُ المُنْكَرَةُ، وثانيها: أَنَّهُ جَعَلَ عالِيَها سافِلَها، وثالِثُها: أَنَّهُ أمطَرَ عَلَيْهِم حِجارَةً مِنْ سِجّيلٍ[2].

**دلالة الضّمير في شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾:**

إنّ الله ليملي للظّالم، حتّى إذا أخذه لم يفلته

يعود الضّمير على القوم المجرمين الذين ذكرهم اللّه تعالى في قولِه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الحجر: 58][3]، ليفيد استغراقَ القوم جميعًا بالعذاب، فلم ينفلت منهم أحدٌ، إشعارًا بشدَّة غضب اللّه عليهم جميعًا.

**بلاغة الاستعارة في قوله ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:**

المنحرفون بالشّذوذ، غير مأسوفٍ عليهم، فهم حثالة الأنام

لما شبه إنزال الحجارة منَ الطين بالمطر النازل منَ السماء أفاد أنَّ الحجارة كانت متتابعةً من فوقٍ في غايةِ العلوِّ مثل تتابع المطر

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.
(3) أبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156.

النازل من علوٍّ؛ لتكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، ولمّا كان المطر ينزل فيما ينتفع منه النّاس عبَّرَ بـ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ ليفيد أنَّ الحجارة النّازلة عليهم من فوقٍ بمثابة العطيَّة تهكّمًا بهم؛ ليكون الكلام على طريق الاستعارة التَّهكميَّة، للإشعار باستحقاقِهم العذاب وأنَّهم غير مأسوفٍ عليهم، مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: 34]، فالاستعارة هنا تصريحيَّة تبعيَّة تهكّميّة[1].

### نكتة التّعبير بقوله ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ دون (مطرنا):

يستعمل اللّفظ في المعنى وضدّه، بزيادة حرف على الصّيغة الأصليّة

ذهب بعض اللغويين والمفسرين إلى أنّ الفعل (أمطَرَ) يُستعمل في مواضعِ العذاب، وأمّا (مطرَ) فيُستعمل في مواضعِ الرحمة، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ ولم يقل (مطرنا)، وهذا بالنّظر إلى الاستعمال لا إلى أصلِ المعنى، فلا يُنافي أنَّ التّعبير بـ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ يفيد الاستعارة التّهكّميَّة كما تقدَّمَ[2].

### نكتةُ استعمال حرف الاستعلاء (عَلَى):

عذاب الله محيط؛ لا يغني فيه الحذر من القدر

أفاد التّعبير بحرف الاستعلاء (عَلَى) تمكّن إنزال الحجارة عليهم، وإحاطتِها بهم.

### دلالةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿حِجَارَةٗ﴾:

إفادة التّخصيص والتّأكيد، بمعنى أنّ العذاب حلّ بهم، دون سواهم

قُدِّمَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿حِجَارَةٗ﴾؛ لإفادة التّخصيص، بمعنى تخصيص إنزال الحجارة بهم؛ ليفيدَ عدمَ إصابةِ لوطٍ وأهلِه الذين خرجوا ليلًا منَ المدينة، ولمّا كان التأكيدُ لازمًا للتّخصيص أفاد التّقديم تأكيدَ إنزالِ الحجارة؛ كما أفاد التّقديم الاهتمامَ بأنْ تصيبَ الحجارةُ القومَ الهالكين جميعًا.

### توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاء في سورة الحجر قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 5/210.

(2) الراغب، المفردات، (مطر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/81، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/97.

تنوُّعُ العبارة بتنوُّعِ السّياق، من أفصح البيان

﴿سِجِّيلٍ﴾، وفي سورة هود قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: 82]، فجعل الإمطار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في سورة الحجر، وجعله على المدينةِ في سورة هود فقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾ [هود: 82]، والسّببُ أنّه لمّا كان الزجر في سورة الحجرِ أعظمَ على المدينة منَ الزجر في سورة هود عليه السلام، لطلبهم أن يأتي بجميع الملائكة، أعاد الضَّمير على المعذبين لا على مدنِهم؛ لأنَّ هذا أصرحُ في استئصالِهم، فقال في سورة الحجرِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: القوم المجرمين الذين قلبت المدائن لأجلهم[1]، وأيضًا لمّا لم يرد في سورة هود ذكر المدينة ولا القرى التي سكنها قوم لوط: وعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82] على غير مذكور ممّا عُلم منَ السّياق، أي: جعلنا عاليَ المدينة سافلَها، ناسبه أن يقول: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: 82] لتقوية دلالة الضَّمير في العود على المدينة دون غيرِها، وأمّا ما في سورة الحجر فقد تقدَّم ذكر المدينة فعاد الضّمير في: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ على مذكور في اللفظ، فناسبه أن يقول: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ ليكون العذاب مجموعًا على الأرضِ وأهلِها جميعًا؛ بأن يكون إمطار الحجارة في تضاعيف انقلاب المدينة وليس بعدَه.

### نكتةُ إسنادِ فعل الإمطارِ لضمير العظمة:

من قوانين الكون الرّاسية أنّ فعل العظيمِ لا يكون إلّا عظيمًا

لمّا تقدَّم أنَّ إسناد فعل الجعل لضمير العظمة (نا) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أفاد تعظيم الجعل المذكور ناسبَه في قوله ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أن يسند فعل الإمطار إلى ذاته سبحانه وتعالى لأنّه هو الآمر، وأفادَ الإسنادُ إلى ضمير العظمة تعظيمَ شأنِ الإمطار بحجارةٍ من سجيل، فإنَّ فعلَ العظيمِ لا يكون إلّا

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/77.

عظيمًا، وليوافق المقامَ في بيانِ شدَّةِ غضب اللّه، وهولِ عذابِه الّذي نزل عليهم.

**فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حِجَارَةً﴾ في السّياق:**

حجارة العذاب الّتي نزلت عذابًا ليست كأيٍّ من الحجارة

لمّا جاءت النّكرة في سياق العذاب أفاد التّنكيرُ تفخيم الحجارة التي نزلت منَ السّماء؛ لتعظيم شأنِ العذاب الذي نزل عليهم، والمعنى أمطرنا عليهم حجارةً ليست كأيِّ حجارةٍ.

**معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾:**

تقييد المنعوت لبيان نوعِه، من البيان المفصح عن المراد

﴿مِّن﴾ هنا بيانيَّة، أي لإفادة بيانِ جنسِ الحجارة، فإنَّه لمّا كان لفظ الحجارة منكَّرًا وكان على معنى التّفخيم كما تقدَّم بيَّن نوعَ الحجارةِ التي نزلت عليهم على طريقِ الإطناب بمجيء الجارِّ والمجرور ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ نعتًا للحجارةِ على سبيل التّقييد للمنعوت؛ لتصوير حالةِ العذاب وهولِه وبيانِ شدَّتِه، فهي حجارةٌ من سجّيل وليس من جنسٍ آخر.

**نكتة التّعبير بلفظ ﴿سِجِّيلٍ﴾، في البيان الجليل:**

عذاب المنحرفين بضربِهم بحجارة من سجّيل، من أبشع العذاب

لما كان السجيل هو الشَّيءُ المركّب منَ الحجرِ والطّين بحيث يكون في غاية القوّةِ والصَّلابة، عبّر به هنا لبيانِ قوّة الحجارة وصلابتها؛ للإشعار بشدَّة العذاب وهولِه، والمعنى: وأمطرنا عليهم حجارة من طين بحيث يكون ضربًا شديدًا عليهم، والعرب إذا وصفت المكروه بسِجيلٍ كأنَّها تعني به الشّدَّةَ ولا يوصف بهِ غير المكروه منَ العذاب[1].

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/364، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 10/619، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/383.